الفصل الثَّالث

ومجددًا يلتمع الضَّوء المراوغ في الذَّاكرة. طفر في صورة تساؤل أنت صاحبه يا صاح: "هل يقدر كارل ماركس أن يرتدي جلبابًا قصيرًا؟!" تسأل نفسك حائرًا، وعينيك زائغة، ووجهك مربد، ولا تملك إجابة!

وعثرت على الكثير من الأوراق، كُتبت بخط يدك، مندسة بين صفوف الكتب، وفي أدراج مكتبك، كلها تتحدث عن فلسفتك في الحياة، أحلامك، تطلعاتك، الكثير منها تطرق إلى اشتراكية كارل ماركس بحماسة، تفند وتتأمل، وتسجل آرائك وانطباعاتك. ما وصلني أنَّك مخلص فيما تعتنق، في قلبك فورة مقاتل، غير أنني لمست في أكثر من موضع مرارة ما تشرئب بعنقها بين حين وآخر، وقرأت بين السُّطور ما لم تقل صراحة: أنَّ الطَّريق محفوف بالألم، وأنَّ بشائر الهزيمة تلوح أكثر من بشائر النَّصر. وبدا من اصفرار الأوراق، واهتراء حروفها، وبهتان الحبر الأزرق، أنَّها مكتوبة منذ زمن ليس بالقريب، ربما كتبتها وأنت في ريعان الشَّباب.

حدسي يخبرني أنَّها أوراق خطر، ربما زجت بك إلى السَّجن يومًا، أو كانت تقدر أن تفعل، وربما مصرعك المأسوي، وما حيك من تدبير شيطاني لاغتيالك كان بسببها! فكلمات كالسُّلطة الغاشمة، والرَّأسمالية الجشعة، والطُّغاة الَّذي يحكمون البلد، والشَّعب المنكوب بالفقر، لا أظنها بكلمات بسيطة هينة، لقد اضطرب قلبي بالخوف وأنا التهم الأوراق، أتلفت كثيرًا، أتأكد أنَّ لا أحدًا بالجوار، يقدر أن يضبطني متلبسًا. ويا للسخرية! فلقد نسيت من القلق الَّذي اعتراني أنني شبح.

وبغض النَّظر عن هذه الآراء، فإنَّ المُذكرات لم تُفدني في شيء فيما يخص تفاصيل حياتك. ربما كانت لك مُفكرة أخرى لليوميات، وما تحيكه لك الأقدار.

obeikandi.com

أسلوبك الشَّائق في الكتابة يشي بحب التَّدوين، وتوثيق ما يعتريك من أفكار ومشاعر، ولدي حدس أنَّه ثمَّة مذكرات قد تشفي غليلي، مخبأة في مكان ما من هذا القصر الفسيح. مذكرات قد تجيب على ما يعتريني من تساؤل وحيرة، ولا أنتظر تلك الدَّفقات الشَّحيحة التي تومض برقية في ذاكرتي بين الحين والآخر، وأحيانًا تنقطع فلا أحسبها تعود.

وكالمجنون أخذت أفتش بين صفوف الكتب: فلك، طب، هندسة، أدب، سياسة، فلسفة! لقد كنت موسوعي الثَّقافة يا صاح، وربما هذا سر نكبتك. هذه الحياة يا صاح، السُّعداء فيها هم بيض الذَّاكرة قليلي التَّفكير، وما سعيك في طريق المعرفة إلا تغذية لنبتة التَّعاسة بالسِّماد وريها بالماء، ومن ثُمَّ منحها الحياة، فتنمو وتُزهر، ليكون الجزاء ثمار العلقم وحياة ملفوفة بالسَّواد. ليتني قابلتك حيًا لأهمس لك بنصيحتي الكبرى!

"وما ينفع اللَّوم وقد ذهبت؟!"

وحفيف خافت اقتلعني من أفكاري، التقطته أذناي مُرهفة السَّمع. أحد ما في هذا القصر معي، يعلم بوجودي، ويجاهد ألا أعلمه.

"وكيف يعلم بوجودي، وأنا شبح؟!"

بسرعة الضَّوء جُست الأمكنة. لا أحد. أنا الآن في حديقة القصر. لا أحد. ورغمًا عن هذا، يملأني إحساس أنَّه ثمَّة من يراقبني.

"وكيف أُراقب وأنا شبح، والظَّلام يلفني، والصَّمت لُغتي؟! "

أذناي تلتقط الحفيف مجددًا. بلفته برقية أراها، امرأة ترتدي البياض، فستان زفاف: منسدلة الشَّعر، قمرية الوجه، رائعة الحسن، تقف على أعتاب شرفة المكتبة. كما الومض أكون هناك، لا أحد! لن أكذب عيناي! كان ثمَّة امرأة هنا تراقبني!

"هل أصابني الهوس؟!"

أنا شبح، ولن يصيبني مكروه، ولا أي من مآسي البشر، حتى اضطراب قلبي هو ادعاء مني. أنا شبح، من يقدر أن يراقب شبح، من يقدر أن يتجسس علي، من يقدر أن يخيفني؟!

وعدت أدراجي أعاود البحث عن حقيقة "فايز"، متناسيًا ذات الشَّعر

obeikandi.com

المنسدل، واهمًا نفسي أنَّ ضغوط المهمة وراء ما يعتريني من وساوس، مؤكدًا لنفسي أنَّ الأشباح غيربني البشر! ولن تقدررصاصة غادرة على الفتك بي، ولن يقدربشري على إيذائي!

وضربت الهواء بيدي، وصرخت بكل قوتي: "أنا خارق، أنا شبح، تبًا لكم أيها البشر! تبًا لكم!"

وتمنيت أن أبكي، أن أذرف نهري الدَّمع الرَّابضين بداخلي؛ لعلني أبرأ وأستريح، ولكن لا دموع، النَّهران ثلجيان متكلسان.

الآن ألمس رحمة هذي السُّيول المنسابة من عيون البشر؛ تحمل صديد الحزن من منبع الألم، تلفظها خارج النَّفس، تطهر الجُرح فيلتئم.

"هون عليك"

اخترقتني الجملة! فزعت من مكاني! من يراني! من يكلم شبح!

شيخ يغلفه الضَّباب، يجر نفسه بالبعيد، يعرج عرجًا شديدًا، يذهب في الاتجاه المعاكس، حيث أشجار الموالح أكثركثافة والضَّباب يتحالف مع الظَّلام لخنق ذرات النَّور.

عويت:

- انتظر!

تبسم. وفي عينيه التي تمسحني وجدت حُبًا دفينًا أربكني، وتمنيت أن أعرف له سبب. وأجابني بحكمة من لقنه الزَّمن:

- الانتظارقدري والسَّكينة ملاذي.
- من أنت؟!
- ألا تعرفني؟!

تفرست في ملامحه، تُشبهُني، قفزت في ذهني صورة الفارس التُّركي على حصانه الأبيض، وسيفه المشهر، وشاربه المعقوف:

- أعرفك! أعرفك! أنت!

وصمت، لا أصدق ما سأنطق، ثُمَّ تفوهت كمن يُدلي باعتراف خطير، ويُلقي بحمل ثقيل:

- أنت "طوسون"!!

تبسم. فقلت وما زلت أتفرسه:

- ولكنَّك روح، روح خالصة! أنت نوراني، أكثر رقة، وأكثر رهافة، وأكثر شفافية! تقدر أن تطير، تصعد لأعلى! فما مكوثك على الأرض، في هذا الطِّين؟! أنا مغصوب، فما يُرغمك؟!

ربت على كتفي، فلم أشعره، وبان التَّأثر في صوته القادم من بعيد:

- حزنك الملتاع جذبني من سكينتي وانتظاري! أنت من ظهري! حفيدي! أنت مني وأنا منك!

واستسلمت للبكاء، أنتحب، ولكن لا دموع:

- وماذا أفعل يا جدي؟!

هز رأسه يبكي، ولا دموع:

- لا أقدر أن أبوح.

شهقت أستقطر الدمع، ولا دموع:

- إذا فيما مجيئك؟!
- كلمة واحدة هي كل المسموح.
- كلمة! كلمة واحدة!

رفع سبابته أمام شفتيه:

- هي كل المسموح.

أومأت برأسي، أجفف دموعي، ولا دموع:

- كلي آذان.
- ابحث.
- وما الجديد؟!
- ابحث.
- أنا بالفعل أبحث عن قاتل "فايز" كي أخلص وأستريح!
- ابحث.
- لا ضوء أسترشد به.
- ابحث.
- أخبرني عن ذات الوجه القمري، والشَّعر المنسدل!

obeikandl.com

- ابحث.
- المرأة التي رأيتها منذ قليل في شرفة المكتبة! ترتدي البياض! فستان الزَّفاف! تتابعني في حركاتي وسكناتي!!
- ابحث.
- أين أجدها؟!
- ابحث.
- عمَّن بالتَّحديد؟! القاتل؟! أم المرأة؟!
- ابحث.
- انتظر! انتظر! لا تذهب أرجوك!

وجعلت أنادي, والشَّيخ يتلاشى, حتى اختفى.

***

القطار المميز, يقل "جيهان" وابنها "فايز", قادم من القاهرة في طريقه للإسكندرية, يَهُم بدخول محطة دمنهور العتيقة. هدأ القطار من سرعته, مُطلقًا نفيرًا ممطوطًا, يُحذر "محولجي" المزلقان العمومي بالتَّأكد من تحويل مسار القضبان إلى الرَّصيف المزمع دخول القطار إليه, وغلق المزلقان أمام المارة والسَّيارات, ريثما يمر, وأن ينكس الذِّراع الأحمر الموجود بأعلى البرج السَّامق, والذي يشير لقدوم القطار من مدى بعيد؛ فينبه الرُّكاب المنتظرين على رصيف المحطة, ليتأهبوا ويستعدوا بالحقائب.

وتهجع الحركة, وتترقب العيون, وتتحفز الحواس, ويتصاعد ضجيج القطار القادم رويدًا, حتى يخبو في هديره ما دونه من أصوات. ثُمَّ يصير وشيشه خافتًا, يهدر وكأنَّه يلتقط أنفاسه ببطء, يستريح من وعثاء سفر ساعتين, تتلوى منه سحب الدُّخان في سماء المحطة الهاجع بها لفترة من زمن, ينتظر زعيق صفارة ورنة جرس ليواصل طريقه مجددًا.

ركب من ركب, وهبط من هبط, وما زالت الأم في غفوتها, و"فايز" بين البشر الجدد عليه, يتابع, ويتأمل, وكله أذان مرهفة, وعينان مبحلقتان.

صعد العربة رجل عجوز، قاده أحد المتبرعين لأقرب الكراسي إليه، فجاء بجوار "فايز"، الَّذي شعر برعدة تجتاحه والعجوز يقتعد المقعد المجاور، وجسده المتداعي يلامس جسده الفتي. ملمس جسد العجوز جعل "فايز" يبتعد وينكمش في إطار النَّافذة الملاصق. جسد نحيل يحتله الموات، تنضح منه برودة عجيبة.

الرَّجل ضامر البدن معدم العافية، برزت عظام قفصه الصَّدري من فتحة صدر جلبابه المتهرئ بشكل ملفت، وصنعت معدته المتكورة على نفسها تجويفًا عميقًا أسفل الصَّدر، مثل كهف في صدر جبل. أشعث الشَّعر، واللِّحية كثة مرسلة، كلاهما في بياض ثلج، قطبين جليديين لا يُعتِّم بياضهما ليل.

لم يكن ثمَّة جديد، فأمثاله في عربات الدَّرجة الثَّالثة أمر طبيعي، أشكال وألوان من البؤس والبؤساء، لا عد لهم ولا حصر، وأكثر من هذا، فقد يزيد الطِّين بلة: قدمًا مبتورة، أو ذراعًا، أو عينًا مفقوءة، أو وجهًا مشوهًا.

ركاب هذه العربات اعتادوا الأمر تمامًا، فلقد أكسبهم تكرار المشهد مناعة ضد التَّأثر، يمنعهم أيضًا إحساسهم بالمغالاة والتَّصنع في إظهار البؤس، فهم في الأساس لهم نصيب كبير منه، ساكن في قلب كل واحد منهم، كامن في جيناتهم الوراثية. هم أرضه ووطنه، وجميعهم في ذات المركب سواء! الفرق الوحيد بين من يستجدي العطف والنُّقود وامتهن الشَّحاذة وبين الصَّامدين الصَّابرين: هو النَّفس التي تعوف المتاجرة بالحال، ومد اليد، واستجداء الغير.

الجديد في المشهد هو "فايز" نفسه. كان الصَّبي دخيلًا شاذًا على المشهد الضَّاج بالفقر والبؤس، وهو الَّذي يرتدي حلة فاخرة، وله وجه صبوح مُنعم، وشعر مصفف بعناية، وساعة ذهبية مبهرة أنيقة تزين معصمه، ولهذا كانت الأنظار تتحلق من حوله، لا من حول العجوز البائس، الَّذي هو منهم، وهم منه.

ورأى "فايز" العجوز بنظرة مغايرة، رآه مختلفًا عن هذا الجمع المتكوم في عربة الثَّالثة، ليس اختلاف التَّنافر، ولكنَّه اختلاف التَّميز. وحَسِبَهُ أصلح الجميع تعبيرًا عن هذا التَّجمهر البائس، يصلح عنوانًا لهم جميعًا، بكل البؤس والفقر المتقوقع فيهم، والهم المحلق فوق رؤوسهم مثل عصافير شيطانية صغيرة.

لم يكن بالعجوز أعضاءً مفقودة, ولا ندبًا عميقة, ولا تشويهًا مفزعًا, غير أنَّه كان معبرًا عن البؤس لأبعد الحدود, بلا تصنع أو مغالاة كما قد يحسبه ركاب الدَّرجة الثَّالثة. البؤس الَّذي لمسه «فايز» في الرَّجل, لم يكن بؤسًا ظاهرًا يمكن التَّحكم بهيئته, فلم يكن جلبابه المتهرئ الَّذي يفضح أكثر ممَّا يستر ويكاد يكشف سوءته, ولا جسده الضَّامر المعدم, ولا ملامحه الغائمة الغائرة من فعل الزَّمن, لم يكن ذلك أبدًا هو مربط الفرس. هو بؤس أعمق من ذلك بكثير, من ذلك الصِّنف الباطني المتفجر بالقاع. حمم بركانية فارت وتصاعدت من شدة التَّأجج, وطفحت على السَّطح بكل التَّأجج والفوران. سلكت لنفسها مسارات نحتتها بقسوة في تقاطيع الوجه, لترسم بحذق فنان شرير خريطة البؤس بكل عنفوانه وجبروته على محيا جسد العجوز الضَّامر.

خرج صوته للمرة الأولى على يد أحد الباعة الجائلين, عندما أوقفه ليشتريه شيئًا أو يستخبره عن شيء, لم يعلم «فايز» تمامًا, وجاهد الصَّبي ليلتقط أي كلمة من حوار العجوز العجيب الدَّائر مع البائع, علّه يفهم ما يدور, بيد أنَّه فشل فشلًا ذريعًا, ورجع خالي الوفاض, وانتهى الموقف بأن باعه البائع المحنك «ولاعة بوتاجاز», ولا يعلم «فايز» هل هذا حقًّا مقصد العجوز أم لا؟! ولكنَّه علم أنَّ ثمن الولاعة هي كل النُّقود التي بحوزته, عندما أخرج كيسًا باليًا من القماش, أفرغ كل محتواه من النُّقود المعدنية في يد البائع.

وجعل الرَّجل يقلب الولاعة, ويتحسسها, كطفل يلهو بلعبة عيد, وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة سعادة وفرح, أشرق لها وجهه القديم, وانقشعت لها أنمال الحزن الرَّابضة في الزَّوايا وبطون الأخاديد, وظل الصَّبي يرمقه مندهشًا في لهوه حتى عافت نفس العجوز اللَّهو, ورجع وجهه ينكمش, يكسوه ويعتريه البؤس من جديد. ترك الولاعة تنساب من بين يديه, وتسقط أرضًا, فمد «فايز» يده وأعطاها له. أمسكها الشَّيخ بلا مبالاة, وسرعان ما لبثت وسقطت ثانية, فأخذها الصَّبي ووضعها في جيب جلبابه, فلم يبد الرَّجل اعتراضًا, يظهر جليًا أنَّه لا يدرك ما يدور من حوله.

وهدأت حركته, وقل اضطرابه, وتملكه سهومًا حادًا لم يجد له «فايز» ما يبرره, وقد صار وجهه أكثر قتامه, وكساه الحزن أكثر عمقًا عن ذي قبل, وبللت

عيناه بوادر دموع، ما لبثت أن انهمرت بغزارة؛ ما فجر شفقة الصَّبي بشدة، ولم يدر ما يفعل، فلقد كان الموقف برمته أكبر من خبرته التي لم تتجاوز قط جدران القصر.

ومكث العجوز فترة من الوقت، صريع إرتعاشات ونشيج مؤلم، اجتاحاه بلا تمهيد أو سابق إنذار، وقبع الرُّكاب في أماكنهم لم يتحرك منهم ساكن، منغمسين في حكيهم التَّافه. «فايز» وحده من بلغ به الانفعال مبلغه، ومن يدقق في وجهه سيجد بشائر سحب تتكأكأ في ركن عينيه، تنتظر هبة ريح لتهطل دموعًا غاصة بالتَّأثر.

أدخل العجوز يدًا مرتعشة في جيب جلبابه البالي الممزق، مُخرجًا ورقة صغيرة، مدها تجاه الصَّبي، متمتمًا بكلماته المتهرئة متآكلة الأحرف، التي لم يفهم «فايز» منها شيئًا، كما العادة منذ جلس العجوز بالجوار. وأخذ «فايز» الورقة، شغوفًا يريد أن يعرف ما بها، فوجده عنوانًا لمكان ما. في البدء شعر الصَّبي بالحيرة في كيفيه إخباره بالعنوان، وكيفية الوصول إليه، وهو الَّذي يحسب العجوز لا يسمع إلا لمامًا، وقد يكون لا يسمع مطلقًا، غير أنَّ حيرته تضاعفت، عندما تفكر في العنوان قليلًا، وجعل يقلب في الورقة مرارًا، لا يدري ما يقول.

العنوان عجيب تمامًا مثل صاحبه، ولم يجد «فايز» الحائر سوى أن يعطي الورقة لأقرب الرُّكاب إليه، ممن توسم فيهم معرفة بالقراءة لارتدائه ذي الأفندية: بنطالًا ضاع لونه، وقميصًا منزوع الجيب! وظنَّه الصَّبي قد يفي بالغرض، ويفلح في كشف اللِّثام عن لغز الورقة العجيب. أخذ الأفندي الورقة، وتابع «فايز» علامات التَّفكير، تعقبها علامات الحيرة علي وجه الرَّجل، وانتقلت الورقة من راكب إلى آخر، حتى رأى كل القارئين وغير القارئين في عربة القطار الورقة المتهرئة بعنوانها الغامض. وكانت اللَّهفة تنشب مخالبها في صدر العجوز، وهو يشعر بالورقة، تنتقل من يد لأخرى، وبهسيس السُّؤال تلوكه الألسن.

وكان العنوان كالتَّالي:

«الفؤادية - شارع لازغلي باشا - منزل رقم ٣»

«أين الفؤادية هذه؟! هي ليست محافظة بالتَّأكيد, هي في الغالب مكان تابع لمحافظة ما, ولكن أي محافظة؟! والقطار يمر في طريقه من القاهرة للإسكندرية بمحافظات عدة! ثُمَّ ما الدَّليل, أنَّ العنوان لمحافظة ممَّا يمر عليها القطار, أو أنَّ ما بهذه الورقة المتهرئة هو عنوان على الإطلاق؟!»

وجعلت التَّساؤلات تدور في الرُّؤوس, تلتمع لها العيون الحيرى, تلوكها الألسن بصوت خفيض, و»فايز» يتابع العجوز الباكي تارة, والورقة في سعيها المحموم بين الرُّكاب أخرى. وخطر لبعضهم, أنَّه قد لا يكون هذا العنوان غريبًا, في زمان فات وانصرم, أيام كان يحكم مصر البشوات والبكوات. وبدا لهم العجوز مسافر من مسافرين الزَّمن تعطلت راحلته في عصر غير العصر.

وحلق طائر الحيرة فوق الرُّؤوس, وخيم الصَّمت, فلم يعد يُسمع إلا ضجيج القطار وكلمات العجوز عسيرة الفهم, ثُمَّ شرع مجددًا في البكاء بصوت عال, يشير إلى الورقة, ما جعل «فايز» يشعر بقبضة ألم تعتصر قلبه, ينز إشفاقًا وتأثرًا, وانبرت سحائب عينيه تهطل زخات المطر, فيمسحها سريعًا ببطن كفه, يكتنفه الإحراج من النَّاس.

ومن صوت العجوز, الَّذي بلله البكاء؛ فمنحه بعض الوضوح, فهم «فايز» بعض الكلمات: «حرام عليكوا . أربعين سنه بدور على عيالي . ساعدوني . عايز أروح لهم. أنا تعبت.»

دفع هذا الملخص البسيط بعض الأفندية لأن يشيروا بأصابعهم واصفين الرَّجل بالجنون والعته, وانفض التَّجمهر من حوله في لمح البصر, فلقد بدا هذا التَّفسير منطقيًا وملائمًا لحاله البائس.

وصل الانفعال ب»فايز» مبلغه, فأخرج من جيبه كل النُّقود التي يحمل, ودسها في جيب العجوز النَّائح الباكي, الغافل عمَّا حوله, وانطلق إلى مقصورة العربة المميزة, فوجد الأم «جيهان» قد استيقظت لتوها, فانكفأ في صدرها يبكي وينشج بكل قوته.

***

صرير البوابة الدَّاخلية للقصر انتزعني من استغراقي التَّام في القراءة. غارقٌ أنا في رواية «جين آير» للبريطانية «شارلوت برونتي». وصلت لذلك الجزء

الَّذي تسمع فيه «جين» الأصوات المريبة ليلًا, في بيت السَّيد «روشستر» الكبير المترامي, لا تعرف لها سببًا.

كم أنت جميلة يا «جين», بصمتك وهدوءك, وعينيك الحالمتين المتقدتين حبًا وحياة, وكلامًا دونما كلام. أنا الشَّبح الَّذي بلا قلب, أو من المفترض أنَّه بلا قلب, جعلته يتقد شوقًا لعالم العشاق البديع. وهل يجوز لشبح أن يجرب يومًا خفقان القلوب وتورد الخدود واضطرام المشاعر؟! آه من ذلك الخفقان الَّذي يجتاحك ويغزوك في حضرة السَّيد «روشستر», السَّيد الوقور ظاهرًا وباطنه يفور ويمور بحبك يا «جين», غير أنَّه صامت لا يتكلم لسبب لم أعلمه بعد, فهذا الرَّجل عميق بعيد الأغوار, تشي عيناه بالخطر, ولكنَّ المؤكد أنَّه يحبك حبًا عظيمًا, ولهذا وحده فأنت في مأمن, وواثق أنَّه لابد يومًا راضخ مستسلم لحبائل حبك, وهو المتجبر العنيد.

ودعيني أتساءل يا «جين» العزيزة: هل إذا ما كان للشبح قلب يدق, فهل يجد على وجه هذه البسيطة من تمتلك رقتك وعذوبتك؟! أم لأنك شخصية صاغها الخيال, لا تمتين للحقيقة بصلة: فقد أتيت على هذا النَّحو المبهر؟! روحك يا «جين» ما أقصد! أنا أيضًا لا أمت للحقيقة بصلة, فهل تراني أمتلك بعضًا من روعتك؟! أم أنَّ ثمَّة اختلاف بيننا؟! فأنا انعكاس لحقيقة ما, أنا طيف حياة كانت موجودة يومًا, بكل تفاصيلها, بكل جمالها وقبحها, أما أنت: فمحض خيال, أجادت أصابع «شارلوت» وصفه ورسمه, فأعطتك من السِّحر والرَّوعة ما لا تملك هي. أنت يا «جين» جمال فائق الوصف, قد يخلقه البشر الفانون, ولكنهم أبدًا لا يملكونه, وكأنَّ النَّقص هو ما يُبصر الكمال ويستدعيه, فيخرج علينا في إبداع المبدعين, ولوحات الرَّسامين!

«كم دنياكم محيرة, عصية على الفهم, أيها البشر!»

ولا أنكر أنَّ توارد الأصوات المريبة في الرُّواية, مع فجائية صوت صرير البوابة الدَّاخلية للقصر أفزعني, واستغرق مني الأمر هنيهات لأفصل بين الحدثين, ومرغمًا أغلقت دفتي الكتاب, وبين ثنايا الظُّلمة تلمست الخطى, وتماهيت تمامًا مع الظَّلام, لا فرق بيننا, ليدلف بعدها الخادم «ياسين», برفقة شرطي بدين.

من أوعز إليه بالحضور هذا المساء، وهو الَّذي لم تطأ قدماه القصر ليلًا منذ الحادثة؟! هو أتى مرة نهارًا، وفقط أسمع نحنحاته وسعاله من الحديقة يجول ويجوب. «ياسين» هذا، قرأت جليًا في عينيه رهابه من الجثث وأماكن الدَّم، ونظرات عينيه القلقة الآن، تشي بكم الفزع الَّذي يعتريه. أيُصدق بأمر أشباح القتلى، وأنَّهم يظهرون ليلًا؟! هي بالتَّأكيد ليست خرافة، وجودي دليل داحض لأي شك، ولكن ما دليله هذا العجوز؟! هل رأى شيئا؟! هل حدثت مني هفوة وشت بوجودي وسُكناي القصر؟! فأنا أبدًا لم أفعل كما معاتيه الأشباح، أبدًا لم أموء كما القطط المذعورة ليلًا، أستمتع بإرهاب المارة والسُّخرية من خوفهم، فهذا في معتقدي إحساس دفين بالنَّقص، حقيقةً ليس عندي، ورغبة مرضية كامنة في بعض الأشباح؛ لإثبات الوجود والإحساس بالذات، في دنيا تحب الوضوح والعلن ولا تقبل بوجود حيوات خفية، تأنفها وترهبها! كما أنَّني لم أُطارد أحدًا من البشر متمثلًا في هيئة كلب أسود، له نباح شرس يثير الخوف والذعر. ولا أنا أصدرت أنينًا موجعًا أثناء فتح صنابير القصر، وانسياب المياه في المواسير، كما يفعل حمقى الأشباح، ولا أنا تمثلت يومًا في صورة القتيل، أظهر واختفي للناس ليلًا كما مراهقي الأشباح.

أنا شبح عاقل، لا تنقصه الحكمة، يستخدم الأساليب العلمية في التَّفكير، مغرم بالأدب والفن. أنا مثقف من طراز رفيع، وهذا أكثر ما استشعرته في نفسي، منذ يومي الأول بالحياة، والدَّليل أنَّ دفقة الذِّكرى الأولى التي طفرت في ذهني، كانت تخص المطالعة في المكتبة. كما أنَّه لدي مهمة محددة، أعمل جاهدًا عليها، بلا وقت لهزل ومزاح.

فلم إذن قدوم «ياسين»، بهذا التَّوجس والخوف في عينيه، وقد حلا مكان مكر الثَّعالب الرَّابض دومًا فيهما؟! وهذا الشُّرطي البدين عما يفتش، ولم تتأهب يده السَّمينة على مقبض المسدس، تتلمس سبابته طريق الزِّناد؟! هل يظن أنَّ الرَّصاص له فائدة تُرجى إذا ما فاجأه شبح؟! هل يظن أنَّه سيردعني برصاصاته الحمقاء؟! أم أنَّ الأمر برمته لا يخصني، وربما لديهما شك بوجود لص بالقصر. ولم التَّعجل؟! سيظهر كل شيء في الحين، وما علي سوى توخي الحذر.

obeikandl.com

«ياسين» الماكر في طريقه لإنارة الثُّريا الكبيرة. لا أحتمل ضوءها المتوهج, هو قادر على نثري فتاتًا مثل لوح زجاج, وإذابتي كما قطعة ثلج. شيء من ارتياح علا وجهيهما, هو والشُّرطي, لمَّا لعلع المكان بالضَّوء المبهر. وكنت قد تمثلت خفاشًا, والتصقت بركن قصي مظلم, أدس رأسي الصَّغير بين أجنحتي الجلدية, مُرهف السَّمع ل»ياسين», يقول بصوت مرتعش:

- رأيت بأم عيني, شيء محير, شيء مخيف!

هز الشُّرطي الكتفين المكتنزين, وطافت العينان الضَّيقتان مجددًا في المكان:

- لا شيء.

- وأكذب عيني؟!

تململ الشُّرطي البدين, يهرش كرشه الضَّخم, يريد الانتهاء سريعًا من هذه المهمة. وتنهد, وقال:

- فلنفتش المكان.

وجال الاثنان بين الحجرات المتراصة العديدة, وكلما فرغا من حجرة, هز الشُّرطي الكتفين, وهرش الكرش, وتنهد وتمتم:

- لا شيء!

فينتفض «ياسين» مؤكدًا:

- لن أكذب عيني!

وتمنيت أن أهب من مكمني, يتملكني الحنق من إلحاحه وإصراره, أنشب مخالبي الوطواطية الصغيرة في وجهه المتغضن العجوز, أسأله: «وأي شيء رأت عيناك أيها الماكر «ياسين»؟!»

ولمَّا انتهيا من الحجرة الأخيرة, واجهه الشُّرطي, يرمقه بنظرة فاحصة, مسحت «ياسين» العجوز من قمة رأسه لأخمص قدميه, وقال ببطء, يلوك الكلمات ويطحنها تحت ضروسه بغيظ:

- لا شيء.

فقال «ياسين», لا يتحرك عن موقفه قيد أُنملة, وعن تكرار جملته اللَّحوح باستماتة:

- وإن فتشنا القصر ألف مرة, فلن أكذب عيني!

تملك الغضب من صوت الشُّرطي, يقول بحدة:

- قلت لا شيء.

وأردف, بعدما مسح ببطن كفه, في كثير من حنق وتأفف, بعض قطرات من عرق تكورت على جبهته العريضة, وبدأت تنساب إلى عينيه الضَّيقتين الصَّغيرتين تحرقهما:

- وإن تكرر الأمر فهذا إزعاج سلطات.

واستطرد مهددًا, يستدير للمغادرة:

- وفي المرة القادمة لن أتوانى عن سجنك.

كاد «ياسين» يبكي, يقول بذات الإصرار, غير مكترث لحدة كلمات التَّرهيب ونظرات الوعيد من الشُّرطي:

- أُقسم على ما رأيت! ماذا تريد لتصدق؟! أنا شيخ طاعن في السِّن, ولن أكذب مطلقًا!

تسمر الشُّرطي في موضعه, وقد كمدت كلمات «ياسين» الباكية حرارة غيظه وضجره, وتحول في لحظة إلى الهدوء التَّام. وقف متصلب النَّظر على «ياسين» بعض الوقت, ثُمَّ سأل أخيرًا ما وددت سؤاله ولم أقدر:

- أخبرني ثانية, وبهدوء, ماذا رأيت بالضَّبط؟

أجاب العجوز هادرًا مثل قطار:

- هذا اليوم, وفي الصَّباح الباكر, رأيت امرأة شابه, لها شعر منسدل, ووجه كالقمر, تطل من نافذة المكتبة!

هرش الشُّرطي كرشه الضَّخم, قبل أن يسأل بهدوء من يتوخى حذر عاصفة, يعلم يقينًا أنَّها قادمة:

- ثُمَّ؟!

أشاح «ياسين» بيديه في الهواء, تجتاح خلجات وجهه أطياف انفعالات شتى, قبل أن يهُب مثل زوبعة:

- اختفت!

رفع الشُّرطي إصبعه, زاويًا ما بين حاجبيه الكثين, ضاغطًا بتوتر على مخارج الحروف:

obeikandi.com

- تقصد ذهبت! غادرت! تركت النَّافذة!

هز «ياسين» رأسه عنادًا:

- ما قلت بالحرف الواحد! اختفت! تبخرت! وكأنَّها لم تكن!

أطرق الشُّرطي برأسه قليلًا, يحاول استيعاب كلام العجوز, يفرقع بإصبعيه مرددًا بين حين وآخر:

- اختفت! اختفت! اختفت!

وقال بعد صمت طال, وقد انتوى أن يضرب الأمر بُرمته عرض الحائط:

- حسنًا! إن آتيت ثانية, تحدثني في هذا الشَّأن, فسوف أُودعك الحبس على الفور!!

وتركه, وغادر بخطوات سريعة مستقيمة, فأطفأ العجوز الثُّريا, وجرى لاهثًا في عقبه, يلتفت مرتعبًا في كل الاتجاهات.

حلقت من موضعي بالسَّقف, وحططت على كرسي, وتحولت من هيئتي الخفاشية وتمثلت ب»فايز», وجعلت أفكر وقد ركبني الهم! حسنًا! يجب أن أعترف, وبشكل صريح هذه المرة! يوجد شبح يحيا معي بالقصر! سيدة جميلة كالقمر! جميلة مثل «جين»! ذات شعر فاحم ناعم منسدل مثلها! يا لي من أحمق! كيف لم يكن لدي تصميم «ياسين» على ما رأيت؟! ما منعني أن أبحث في الأمر مثلما يبحث؟! وقد رأيت أنا أيضًا بأم عيني! لم كذبت نفسي؟! هل تملكني الغرور لكوني شبح, ولكون الأشباح يمتلكون من القدرات الخارقة ما يكشفون به ألاعيب البشر؟! ولكن من خدعني ليس بشر! هو شبح مثلي, يمتلك حيطة ودربة وحذر أكثر مني! ولكن هو لمن؟! لمن هذا الشَّبح؟! لمن هذا الشَّعر المنسدل البهيم, والوجه الجميل كالقمر. ونهضت حانقًا, أزعق بكل صوتي الَّذي لا يُسمع: «أيتها الجميلة «جين آير»! أيها الشَّبح الَّذي يراقبني الآن! أخرج عليك الأمان! عليك الأمان!»

انبلج «طوسون» كصباح ندي, عالق بين السَّماء والأرض! هتفت من فوري:

- أيها الشَّيخ الجليل! جدي «طوسون»! ساعدني باللَّه!

همس فيما يختفي, وعلى شفتيه ذات الابتسامة الودود:

- ابحث! ابحث يا بني!

obeikandl.com